مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn : 2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد9/العدد: 01 (2021)، ص 62- 78

أبو القاسم سعد الله ناقدا؛ قراءة في المنهج التاريخي ومصطلحاته النقدية

Abu Al-Qasim Saadallah, a critic; a reading of the historical method and its critical terminology

الباحث حميدي عبد السلام [1]

[1] مؤسسة جامعة ابن خلدون تيارت-الجزائر-

تاريخ الاستلام 2021/04/19 تاريخ القبول: 09 /2021/05 تاريخ النشر: 2021/08/07

ملخص:

تأتي هذه الورقة البحثية لتكشف الجانب النقدي من حياة الدكتور سعد الله العلمية ، نتعرّف من خلالها على مدى إسهامه في الانتقال بالنقد الأدبي في الجزائر من الطابع التقليدي الانطباعي إلى الطابع العلمي الحداثي الذي يبنى على مناهج ونظريات، حيث وظف المنهج التاريخي ومصطلحاته النقدية واستخدمها كآليات جديدة للنقد الحديث، حيث تنسب له الريادة في توظيف المنهج التاريخي متأثرا بمدرسة النقد العربي المشرقي

من هنا يمكننا القول أن أبا القاسم سعد الله يعد قمة مؤثرة في الأدب الجزائري ، إبداعا ونقدا، كتب الشعر ، وألَّف في القصة وفن الرحلة، مارس النقد السياقي على اختلاف مناهجه؛ التاريخي والاجتماعي وكذا النفسي، فأغنى رفوف المكتبة الجزائرية ببحوثه وإبداعاته، ، فكان المؤرخ واللغوي ، الأديب والناقد

كلمات مفتاحية: النقد الجزائري الحديث؛ أبو القاسم سعد الله؛ النقد السياقي؛ المنهج التاريخي؛ المصطلح النقدي

Abstract:

This research paper comes to reveal the critical aspect of Dr. Saadallah's scientific life, through which we learn about the extent of his contribution to the transfer of literary criticism in Algeria from the traditional impressionistic character to the modernist scientific character based on methods and theories, where he employed the historical method and its critical

terminology and used them as new mechanisms of criticism Hadith, as it is attributed to him as a pioneer in employing the historical method, influenced by the school of Arab Levantine criticism

we can say that Aba Al-Qasim Saadallah is considered an influential summit in Algerian literature, creativity and criticism, he wrote poetry, authored in the story and the art of the journey, he practiced contextual criticism in its various approaches, historical, social, as well as psychological, so the shelves of the Algerian library were richest with his research

Keywords: Algerian modern criticism; Contextual criticism; the historical approach and its terminology.

المؤلف المرسل: حميدي عبد السلام

1. مقدمة:

ظل النقد الأدبي الجزائري الحديث مواكبا لتلك التحولات الفكرية والثقافية التي شهدتها أوربا وبعدها دول المشرق العربي في القرن العشرين، فقد ساير النقاد الجزائريون تلك الحركة النقدية التجديدية، التي ظهرت كثورة على الطابع الذوقي والانطباعي الذي اصطبغ النقد بلونه على مدى عصور ، فقد ظهرت ملامح التجديد مع الشاعر الناقد رمضان حمود في توجهه الرومانسي متأثرا بفيكتور هوجو Victor Hugo، وبعد مرور أكثر من ربع قرن تقريبا، شهد النقد الجزائري تغيرا جذريا في الرؤى والمفاهيم حول الظواهر الأدبية، فانتقل من مرحلة الذوق والانطباع وإصدار الأحكام النقدية إلى مرحلة جديدة تدرس الأدب من منظور علمي منهجي، يقوم على أدوات وإجرائية وآليات ومصطلحات مفاتيح يستخدمها الناقد في سبر أغوار النص للكشف عن مضامينه واستكناه مقاصده، وكان هذا مع جيل من النقاد يمثله الدكتور أبو القاسم سعد الله، عبدالله الركيبي، محمد مصايف وغيرهم، هؤلاء كانوا على اتصال بالثقافة المشرقية بحكم مواصلة دراسات عليا في إحدى الجامعات المصرية وكانوا تحت إشراف كل من سهير القلماوي وشكري الفيصل وعمر الدسوقي، فاطلعوا على ما يستجد في الساحة النقدية، فنقلوا المناهج السياقية بما فيها المنهج التاريخي والاجتماعي

والنفسي التي تعنى بربط الظاهرة الأدبية بالعوامل الخارجية التي أسهمت في إنتاجها. فكان المنهج التاريخي أو المناهج في الظهور علي يد أبي القاسم سعد الله الذي يعد المؤسس الحقيقي للنقد المنهجي الحديث، في تلك الدراسات النقدية التي أجراها حول الأدب الجزائري، والتي كان ينشرها في مجلة الآداب اللبنانية مابين سنوات(1954-1961)، ثم جمعها في كتاب بعنوان «دراسات في الأدب الجزائري الحديث»، طبق من خلالها المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي، ثم تناول دراسة أخرى حول الشاعر محمد العيد آل خليفة وهي دراسة تاريخية بعنوان «شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة»، ثم بدأت تتوالى المحاولات النقدية مع الدكتور عبد الله الركيبي ومحمد ناصر وعبد المالك مرتاض، تتناول الظواهر الأدبية من منظور تاريخي، ومن خلال هذا التوافد المنهجي يكون النقد الأدبي في الجزائر قد انتقل من مرحلة التذوق والانطباع إلى مرحلة جديدة معيارية توصيفية تنبني على مناهج علمية، وهذه المناهج بدورها تشتمل على عديد المصطلحات النقدية التي تتخذها كأدوات إجرائية لدراسة النصوص الأدبية ونقدها.

2-مرجعية التفكير النقدي عند أبي القاسم سعد الله:

بما أن المنهج التاريخي في النقد ليس وليد البيئة المحلية ، ولا عصارة تفكير نقاد جزائريين، بل هو بضاعة أجنبية مستوردة في إطار الحداثة العلمية، جدير بنا أن نتطرق في بحثنا هذا إلى نشأته في التربة الأصلية –الغربية-ثم تنشئته الأخرى ، أين أعيد استنباته في التربة العربية المشرقية، حتى يمكننا التوصل إلى قضية هامة تتكشف لنا من خلالها شخصية الناقد أبي القاسم سعد الله، ونقصد بهذه القضية ، العناصر التي تسهم في بلورة طريقة تفكيره ، والمصادر العلمية والمعرفية التي يستقى منها أدواته وأساليبه في الدراسة النقدية ، وحتى لغته الخاصة وجهازه المصطلحي، لأن المصطلح النقدي يمثل لغة خاصة–لغة النقد الأدبي–التي تتأسس على تفكير معين نسميه «المرجعية».

نعني بالمرجعية إذن تلك الخلفيات الفكرية والنقدية التي يستلهم الناقد منها أفكاره ويؤسس عليها مشروعه النقدي ، أو بالأحرى هي تلك الأصول الفكرية والجذور المعرفية والذهنية، التي تسهم في بلورة عملية التفكير النقدي ، «ذلك أن

الانتماء الفكري والسياسي من شأنه أن يؤثّر في التوجيه العلمي لدى من يتبنونه، وقد انعكس هذا التعدد والتنوع المعرفي في كتاباتهم ودراساتهم» (زيوان فاتح ، 2007، صفحة 06)، وقد عرّف مرتاض المرجعية من الوجهة المعجمية«أنها تتفق مع تعريف المرجع، أما من الوجهة اللسانياتية فإنها وظيفة تتيح للسمة أن تحيل على المتحدَّث عنه، على نحو تعيين «المرجع»، حتى كأنها، أو كأنه، صنو للتّقريريّةLa dénotation»(مرتاض عبد المالك، 2015، صفحة 338)

بحكم أن المنجز النقدي الحديث والمعاصر هو نتاج غربي وفد إلى النقد العربي بمناهجه ومصطلحاته، نجد ثلاث مرجعيات، الأولى غربية ، وأخرى عربية وثالثة انتقائية، ثم يمكن أن تتفرع تحت كل مرجعية، مرجعيات أخرى جزئية ، ففي المرجعية العربية نجد النقاد يختلفون في توجهاتهم، فهذا تفكيره سلفي وآخر حداثي، وهذا لغوي أوبلاغي أو فلسفي، وآخر بين التفكير العلمي والسياسي.

أما مرجعية أبي القاسم سعد، فقد تجلت بشكل واضح في أعماله العلمية، إنه رجل دين وإصلاح، غيور على مقومات الأمة مجده وعزّها، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وكان حسن فتح الباب قد أشار إلى ظروف تكوينه وتعليمه ، وقد نقل ما صرح به ، حيث قال: «بأن هناك ثلاثة اتجاهات قد أثرت في حياتي أثناء دراستي بتونس: الأول هو التربية الدينية والأخلاقية تلقيتها بالزيتونة، والثاني هو التربية الوطنية التي تلقيتها...أما الاتجاه الثالث فهو التربية الأدبية التي حصلت عليها بفضل مطالعتي للإنتاج المشرقي» (فتح الله حسن، 1986، صفحة 13)، ومن هنا يعتبر سعد الله من رجالات الفكر البارزين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات. كتب موسوعة عن تاريخ الجزائر إضافة إلى البحوث والمقالات التي كتبها عن اللغة العربية ونشرها في مجلات المجمع العلمي العربي ومجلة الكلمة ودراسات نقدية عن الأدب الجزائري في «دراسات في الأدب الجزائري الحديث» و«تجارب في الأدب والرحلة» كما قام بالتحقيق في بعض الكتابات منها: «حكاية العشاق في الحب والاشتياق للأمير مصطفى بن إبراهيم» و «رحلة ابن حمادوش لعبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري»، وقبل حديثنا عن مساهمة سعد الله في تجديد آليات النقد الجزائري، والانتقال به من مرحلة إلى أخرى، موظفا ما توصل إليه النقد الغربي والعربي

المشرقي من مناهج علمية تعنى بدراسة النص الأدبي، والمنهج التاريخي على وجه الخصوص، لا بدا أن نشير إلى نشأته في النقدين الغربي والمشرقي.

3-النقد التاريخي عند الغرب:

مرّ النقد الأدبي الغربي عبر مراحل مختلفة ، بدءا بنظرية المحاكاة عند أرسطو والمذاهب الأدبية الغربية، وظلّ النقاد يبحثون عن سبل كفيلة لفهم الظواهر الأدبية ، حتى العصر الحديث ، أين توصلوا إلى مناهج ونظريات ، مستفيدين من تطور العلوم التجريبية في القرن التاسع عشر في أوربا مع نظرية «النشوء والارتقاء» عند تشارلز داروينCharles Darwin، ولم تكن الحركة النقدية بمنأى عن هذه النهضة ، فقد انتقلت هذه المناهج إلى ميدان النقد ، وأصبحت تدرس النص الأدبي وفق معايير وآليات ، تعنى بالسياق الخارجي الذي يرتبط به ، تعاين النص في إطاره التاريخي والاجتماعي والنفسي ، فأول ما ظهر منها، هو المنهج التاريخي مع الناقد الفرنسي فرديناند برونتير Ferdinand Bruinter(1849-1906)، أول من دعا ...إلى تطبيق هذه النظرية على الفنون الجميلة والأدب ، فقد لاحظ أن التطور في حقل الظواهر الأدبية كثيرا ما يؤدي إلى بروز نوع جديد تتضح فيه بقايا نوع سابق على النحو الذي تتطور فيه الكائنات العضوية في (نظرية داروين)» (قطوس بسام، 2016، صفحة 35)، وقد وضع الناقدان سانت بيفSt. Bev (1804-1869) وهيبوليت تين Hippolyte Tin(1828-1893)المنهج التاريخي ضمن مناهج النقد الحديثة متأثرين بنظريات علم الأحياء ، حيث قام بيف على «دراسة عدد من عصره وأخذ يصنفهم إلى طوائف وأنماط وصولا إلى فهم نتاجهم ومحاولة تفسيره، كما ربط بين شخصية الأديب وأدبه ورأى أن شخصية الأديب تعدّ مفتاحا لفهم أدبه وتذوقه فكما تكون الشجرة يكون ثمرها، وكان منهجه النقدي يقوم على تتبع سير الأدباء تتبعا دقيقا يتعرف إلى حياتهم الخاصة، ويربطها بجنسها ووطنها وثقافتها ومحيطها الأسري» (قطوس بسام، 2016، صفحة 36)، يعتقد أن القوانين الطبيعية تتحكم في شخصية الأديب فتطبعه بطابعها ، فهو يرى أن هناك ثلاثة عوامل تؤثر في الإنتاج الأدبي، وهي الجنس والبيئة والعصر، لكن ريادة توظيف المنهج التاريخي في العصر الحديث تعزى إلى الناقد الفرنسي الشهير غوستاف لانسون Gustav

Lanson (1857-1934)، وقد ذكر أن هذا المنهج الذي حاول إعطاء فكرة من ابتكاره ، ما هو إلا نتيجة لتفكير في خطة سار عليها عدد من النقاد والمفكرين السابقين والمعاصرين ، وحتى اللاحقين ، كما ذكر بأنه«ليس خاصا بالأدب الفرنسي الحديث ، فقد أخذ بهذا المنهج –في روحه ومبادئه العامة-ألفريد وموريس كروازيه Alfred et Maurice Croisetعندما وضعا تاريخ الآداب الإغريقية ، كما أخذ به جاستون بواسييه Gaston Boissier في دراسته للأدب اللاتيني ، وجاستون باري Gaston Boissierوجوزيف بدييه J.Bédier عندما أوضحا من معالم الأدب الفرنسي خلال القرون الوسطى» (لانسون/مايبه تر محمد مندور ، 1982، صفحة 16)، إلى جانب هذا ذكر لانسون أن النقد التاريخي لا يمحو النقد التأثري والنقد التقريري، وبقية النقود الأخرى السائدة التي بإمكان الناقد التاريخي أن يستفيد منها، إذ أنها تعد بمثابة «قياس للأثر الذي يتركه الأديب، ذلك لأن المعتقدات الفنية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية والدينية ليست إلا مظهرا لإحساس شخصيّ أو وعي اجتماعي» (لانسون /مايبه تر محمد مندور، 1982، صفحة 18) يظهر الأثر الذي خلفه النص الأدبي، وعلى هذا الأساس «يستخدم الناقد التاريخي المنهج لتفسير ووصف ماضي الظواهر الأدبية ويوضح لنا : كيف جاءت وأين ومتى ظهرت؟ فإذا طبّق المنهج التاريخي للأدب دون الاستناد إلى وثائق يقينية مؤكدة، يكون الناتج حتما بعض الافتراضات الظنية غير قابلة للتحقيق. ولكن منهج تاريخ الأدب الحق هو الذي يعتمد أصلا على الحقائق المؤكدة والثابتة، استنادا إلى الوثائق الأصلية التي تستخدم لاستجلاء الوقائع الأدبية، باستخدام فرضية الأنساق المتكاملة يمكن للباحث التاريخي النظر إلى الوقائع الأدبية باعتبارها عنصرا من عناصر البنيات الثقافية يلعب دورا معينا داخل هذه البنيات» (حجازي سمير، 2004، صفحة 127)، والحقيقة أن المنهج التاريخي يتداخل بشكل كبير مع المنهج الاجتماعي «حتى إن كثيرا من النقاد يتحدثون عنهما بوصفهما منهجا واحدا، ولعل ذلك راجع إلى انحدار كليهما من أصول نظرية فلسفية هي المادية الجدلية، ولكن وجه التمايز بينهما يكمن في احتفاء الأول بالإطار التاريخي الشامل (الذي يتجاوز تفاصيل الطبقة والصراع الطبقي)للأثر الأدبي وصاحبه على السواء فيما يحتفي الثاني بالظاهرة الأدبية في

صورتها المجتمعية»(وغليسي يوسف ، 2002، صفحة 19)، وفي هذا الصدد يقرر سبيلرSpeller أنه من الضروري أن ينظر الناقد التاريخاني «إلى تلك الوقائع نظرة مجملة فينظر في ظروف كتابتها ونشرها، والظروف التي أسهمت في تحديد شكلها واتجاهاتها، بمعنى أن لا ينظر إلى في عزلتها ، أو يحاول نزعها من سياقها التاريخي، وعلى هذا الأساس يجب على الناقد التاريخي أن لا يفهم أية فكرة جزئية إلا من خلال سياقها العقلي الكامن في الحقائق الأدبية التاريخية»(حجازي سمير، 2004، صفحة 129)، وانتشر المنهج التاريخي بشكل واسع في أوربا ، فظهر في فرنسا إضافة إلى لانسون وتين وبيف، الناقد ماريل رايمونMariel Raymone الذي صنع تاريخا من خلال كتابه«من بودلير إلى السريالية»، أما في إسبانيا ظهر أورتيجا إي جاسيتOrtega E. Jasat وأميركو كاستروOmirko Castro الناقد الذي أجرى دراسات حول أدب ثربانتيس، وفي إيطاليا مع كروتشاKrocha وفي ألمانيا فوسلرVoslr وكورتيوسCurtiusوأورباخOrbach ، إضافة إلى الكثير من الأعمال النقدية ذات التوجه التاريخي في أنحاء أخرى في أوربا وأمريكا، مما جعل الناقد يقول: «باختصار.إذا جهلنا التاريخ فسوف نشوّه معنى النصّ، والمنهج التاريخي لا يصحح الأخطاء المحتملة لقراءة عفوية فحسب، وهي خدمة تجريبية قليلة الأهمية، وإنما أيضا يرد إلى كل عمل الحياة واللون اللذين كان عليهما عند مولده» (انريك اندرسون امبرت تر الطاهر أحمد مكي ، 1991، صفحة 112)

4-تأثر النقاد المشارقة بالنقد الغربي:

بعدما حقق النقد الغربي قفزة نوعية في ميدان العلوم الإنسانية عامة ، وميدان النقد خاصة، تفاعل بعض النقاد العرب المشارقة معه، وسعى ثلة منهم إلى نقل تلك المعارف النقدية والمناهج العلمية والنظريات، في حين راح بعضهم يؤصل لها في التراث النقدي العربي، في إطار الصراع بين تيار المحافظين والمجددين، مشيرا إلى أن النقاد القدامى عرفوا المنهج التاريخي وسواه، مستدلا بتلك الدراسة النقدية التي أجراها ابن سلام الجمحي في كتابه«طبقات الشعراء»، «حين أفرد مباحث لشعراء القرى، ولشعراء المدينة، ولشعراء مكة، ولشعراء اليهود، مما يمكن أن يعدّ إرهاصا مبكرا للرؤية التاريخية .كما لا نستطيع أن نتجاهل ، ما أدركه ناقد كالأصمعي من اثر المتغيرات الاجتماعية والعقدية

والقيمية في شعر الشاعر المخضرم حسان بن ثابت وانتهائه إلى مقولته الشهيرة عن لين شعر حسان في الإسلام بعد أن كان فحلا في الجاهلية» (قطوس بسام، 2016، صفحة 33)، أما طه حسين فهو من النقاد الذين تأثروا تأثيرا بليغا بالمنهج التاريخي في دراسة أجراها حول الشعر الجاهلي في كتابه«في الأدب الجاهلي»، فقد كثرت في نقده عبارات الشك والظن والاحتمال، «وفي النقد يمكن لناقد الأدب أن يلائم بين الشكّ وما يذهب إليه كل من سانت بيف وهيبوليت تين ، أو يقدم الشك بين يدي تفسير الأعمال الأدبية في ضوء البيئة والجنس والزمن والعبقرية أو الموهبة» (كمال زكي أحمد ، 1972، صفحة 89)، وقد صرح بهذا التأثر وأشار إليه في مقدمة كتاب«ذكرى أبي العلاء»، حيث أنه وضعه«على قاعدة معروفة وخطة موسوعة ، من القواعد والخطط التي يتخذها علماء أوربا ، أساسا لما يكتبون في تاريخ الآداب، فهو هنا يعلن أنه يتبنى ليس فقط منهجا جديدا وإنما أيضا خطة في الكتابة أو التأليف» (بحراوي السيد ، 1993، صفحة 44)، وقد سار على نهج طه حسين مجموعة من النقاد منهم محمد مندور (1907-1965)، الذي يدين له بالكثير ، في تلك التوجيهات والتسهيلات التي قدمها له لمزاولة الدراسة في فرنسا ، حيث قضى تسع سنوات ، اطلع خلالها على الآداب الغربية والنقد الحديث، فكان«أول من أرسى معالم النقدية للانسونية في الوطن العربي ، ومن غريب المصادفات أن تكون سنة 1946 تاريخا لنهاية النقد التاريخي في فرنسا، وفي الوقت نفسه تاريخا لبدايته الفعلية في النقد العربي» (وغليسي يوسف ، 2002، صفحة 21)، مع ظهور كتابه النقدي(النقد المنهجي عند العرب)، الذي يعكس طروحات غوستاف لانسون ورؤيته المنهجية للنقد الحديث.

5--النقد التاريخي عند أبي القاسم سعد الله:

يعد أبو القاسم سعد الله قمة مؤثرة في الأدب الجزائري، إبداعا ونقدا، ألف قصائد الشعر، كما كتب في القصة وفن الرحلة، مارس النقد ، فأغنى رفوف المكتبة الجزائرية ببحوثه ومؤلفاته، أجمع النقاد الجزائريون أن ريادة توظيف المنهج التاريخي في النقد الجزائري تعزى إلى الدكتور أبي القاسم سعد الله في تلك المقالات النقدية التي كان ينشرها في مجلة الآداب اللبنانية بين سنة 1957م و1961م ، ثم قام بجمعها في كتابه «دراسات في الأدب الجزائري

الحديث»، وقد ذكر أبو القاسم صراحة بأن له السبق في هذا النوع من الدراسة النقدية حيث قال: «ولعله من المفيد التأكيد على أني كنت حين كتبت هذه الأبحاث –وقد أشار إليها سابقا-أورد طريقا مبهما وأسير بلا دليل، إذ لا أعرف أحد أرّخ، قبل هذه الأبحاث، للأدب الجزائري العربي أو تناوله بالنقد والتقييم» (سعد الله أبو القاسم ، 2005، صفحة 09)وتمت هذه الدراسات وفق دراسة نقدية تاريخية لمختلف أشكال الأدب الجزائري الحديث ، حيث شرع أبو القاسم سعد الله بداية بالشعر الحديث ، ولتسهيل دراسته هذه قام بتقسيمه إلى أقسام حسب الفترات الزمنية، وقد اعتمد في هذه الدراسات النقدية على مجموعة من المفاهيم والمصطلحات النقدية ، لإدراكه بأهميتها في ميدان العلم ، إذ أن تحديد المصطلح أولا أمر ذو أهمية بالغة «بالنسبة للنقاد والباحثين ، فهو يساعدهم أولا على ضبط تفكيرهم وتوجيهه وتعميقه، ويساهم ثانيا في تبادل خبراتهم وأفكارهم ، ويقضي ثالثا على العشوائية الشائعة في استخدام المصطلح ، يقضي رابعا على جوانب اللبس والغموض في نصوص البحوث المترجمة وغير المترجمة» (حجازي سمير ، 2004، صفحة 138)، فالمصطلح لغة العلم ، والمصطلح النقدي هو لغة النقد الأدبي ، به تحد الحدود وترسم المعالم ، وتوضع الفواصل بين الحقول والمناهج والنظريات ، إنه الأداة التي يتوسل بها الناقد للولوج إلى عوالم النص على حد تعبير عبد السلام المسدي.ولما أدرك أبو القاسم سعد الله هذه القيمة المعرفية للمصطلح النقدي ، استخدمه في تفسير ظاهرة الشعر الجزائري الحديث ، ومن هذه المصطلحات الذي وظفها نذكر:

6- مصطلحات النقد التاريخي:

يتطرق النقد التاريخي إلى دراسة النص الأدبي دراسة سياقية خارجية ، فيعنى بالتطرق إلى الأديب من حيث حياته ، نشأته ، ظروفه ، ظروف عصره و أدبه، يربطه بالأحداث والمناسبات التاريخية ، فإذا تتبعنا بعض الدراسات النقدية الأدبية التي« تناولت المصطلح النقدي التاريخي لوجدنا أهم هذه المصطلحات حضورا هي البيئة، النشأة ، التاريخ ، التطور، الزمان والمناسبة» (بوجمعة بناني أحمد ، 2017، صفحة 18)، وقد استمد النقد التاريخي في الجزائر جهازه الاصطلاحي ومفاهيمه متأثرا بما قدمه الناقد هيبوليت تين في

منهجه التاريخي الذي ينبني على ثلاثيته(العرق، البيئة، الزمان).فأبو القاسم سعد الله حينما تناول الأدب الجزائري بالدراسة في كتابه«دراسات في الأدب الجزائري الحديث» وظف المنهج التاريخي واعتمد على مصطلحاته منها مصطلح النشأة، الأحداث والبيئة ، ويعلن صراحة بهذا النهج بقوله: «وكانت رغبة منّي في أن تحتفظ هذه الدراسات بطابعها التاريخي والعاطفي ، فقد كتبت تحت ضغط الثورة التي كانت تعيشها الثورة ، وكتبت بروح خاصة في فترة من العمر لا يمكن التنكر لها حين قفز الزمن بالإنسان من سنة لأخرى ومن عقد للآخر» (سعد الله أبو القاسم، 2007، صفحة 08)

أ-مصطلح النشأة:

يعد مصطلحا أساسيا في النقد التاريخي، شاع في النقد الجزائري مع الدكتور أبي القاسم سعد الله في دراسته لشعر محمد العيد آل خليفة في مقال له نشره في مجلة الآداب اللبنانية في عددها تحت عنوان « محمد العيد، كبير شعراء الجزائر»، تحدث عن حياته ونشأته، وقت اعتبره شخصية مثقفة «راسخة المعلومات تجمع بين القديم والجديد، بين الحياة الدينية التي ورثها أبا عن جد وبين الحياة المادية التي يعيش تحت شمسها ويتنفس هواءها صباح مساء» (سعد الله أبو القاسم، 1960، صفحة 48)، وفي كتابه بعنوان«شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة»، قد جاء حديثه عن مصطلح النشأة والظروف المحيطة بالشاعر في القسم الأول ، في الفصل الثاني من الكتاب .تطرق من خلاله إلى حياة الشاعر، تجاربه وثقافته وآراؤه المختلفة، وقد أبان عن تأثره بالمنهج التاريخي، في ربط الظاهرة الأدبية بظروف نشأة الأديب، ليسهل فهمها وتفسيرها .

ب-مصطلح البيئة:

استعمل أبو القاسم سعد الله مصطلح البيئة في تعريفه للأدب الجزائري، فقد ذكر بأنه لا يختلف عن الأدب العربي كثيرا ، بحكم البيئات التي ميزتها نفس الظروف والمشكلات السياسية والفكرية التي أصابها الاستعمار الغربي بالجمود ، كما وظف هذا المصطلح أيضا في دراسته لشعر محمد العيد آل خليفة ، وتم ذكره تحديدا مع مصطلح النشأة في القسم الأول الفصل الثاني من المؤلف .عالج من خلاله الناقد ظروف الشاعر الحياتية الاجتماعية وربطها بالظاهرة الأدبية ،

حيث اعتبر الواقع الاجتماعي من المؤثرات الأساسية في تطور الشعر الجزائري الحديث، فذكر أن الشعر أصابه تطور ملموس على يد الحركة الإصلاحية، «تجلى في ظهور شعر جديد يختلف كثيرا عن شعرها قبل الحرب العالمية الأولى ، متعدد الأغراض يتماشى مع الواقع الاجتماعي ويستلهم وجدانه الجماعي، فكان أن ظهر الشعر الوطني الإصلاحي والاجتماعي والسياسي، كما تطور من ناحية الفنية بعض التطور» (ناصر محمد ، 2006، صفحة 30)

ج-مصطلح المناسبة:

يعتمد الناقد التاريخي على هذا المصطلح اعتمادا كبيرا في ربط النصوص الأدبية بتلك المناسبات التاريخية والأحداث التي زامنتها ، صرح الدكتور سعد الله بأنه لجأ إلى توظيف هذا المصطلح، إذ يقول «بدأت في التعريف بالأدب العربي في الجزائر منذ كنت طالبا بالزيتونة في تونس.ففي عام 1954 نشرت لي مجلة «الآداب»البيروتية مقالا أذكر أنه كان بعنوان«أرض الملاحم» تناولت فيه علاقة الأحداث الجزائرية بأدب الملاحم ، وبعد قدومي إلى المشرق العربي(خريف 1955)صدمني ضعف العناية بأدب المغرب العربي عانة وأدب الجزائر خاصة، فأخذت على عاتقي أن أعرف على الأقل بالأدب الأخير.وقد كانت أحداث الثورة في الجزائر تشجعني وتثير حماسي لزيادة البحث» (سعد الله أبو القاسم، 2007، صفحة 07)، كما اعتمد على هذا المصطلح-الأحداث- كإجراء تحليلي في دراسته النقدية لشعر آل خليفة ، يقول: «عكفت مدة على دراساتها وربطها بالأحداث والمناسبات التي قيلت فيها، وتتبعت تطور الشاعر خلال تجربته الشعرية الطويلة ...وخرجت بعد ذلك بهذه الدراسة التي لا تعدو أن تكون جولة في ديوان ، وانفعالا بأحداث ورؤيا وتجربة إنسان شاعر» (سعد الله أبو القاسم ، 1985، صفحة 18)، فبعد الدراسة التاريخية التي أجراها للشعر الجزائري، «يتبين إلى أي حد كان الشعر مرآة للأحداث ، ولسانا صادقا أمينا للتعبير عن إحساس الشعب تجاه قضاياه: الخاصة والعامة ، الداخلية والخارجية ، وقد أصبح بما لا يدع مجالا للشك أن الشعب لم يكن غافلا ولا ساهيا عن مجريات الأحداث ... » (الركيبي عبد الله ، د ت، صفحة 30)

د-مصطلح المرحلة والتطور:

يعد هذا المصطلح في الحقيقة أداة يستخدمها الناقد سعد الله كثيرا ، حين يقسم الأدب، شعرا ونثرا إلى فترات زمنية مختلفة، ليميز الأدب من حيث مضامينه وموضوعاته ، لكن كثيرا ما واجهته بعض العقبات صعّبت من مهمته، بحكم أن هناك مؤثرات وتيارات خارجية ظهرت في الأدب الجزائري الحديث، و«أن المؤثرات كثيرة ومتباينة ، وأن التيارات عديدة ومتشابكة .فمن الصعب الفصل بين فترة وفترة في تطور الأدب سيما إذا كانت جميع الفترات متشابكة في خط يغلب عليه الاعتدال والتوافق» (سعد الله أبو القاسم ، 1985، صفحة 29) ، لكن هذا لا يعني أنه استسلم لهذه العقبات التي ذكرها ، فقد استخدم آلية التقسيم المرحلي للظواهر الأدبية في دراسته للشعر الجزائري الحديث، هذه الآلية التي قوم عليها المنهج التاريخي يراها أنسب ، وقد ذكر بأن«بأن لدراسة الشعر الجزائري دراسة تتماشى مع ما بحثناه سابقا وضعنا له هذا التصميم ، وذلك بتقسيمه حسب الفترات التي يكثر فيها الاصطراع الشعبي وتتدافع أثناءها الأمواج الوطنية المختلفة» (سعد الله أبو القاسم ، 1957، صفحة 28)، حيث امتدت هذه الدراسة حين امتدت دراسته من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة 1954، تناولها بالدراسة عبر مراحل خمس ، تضمنت كل مرحلة أحداثا تاريخية ومناسبات متداخلة، وهي على الشكل التالي :

-المرحلة الأولى :

أطلق عليها شعر المنابر وكانت من أواخر القرن الماضي إلى سنة 1925م، وذكر أن شعر هذه المرحلة هو شعر تقليدي ، شعر منابر بمعناها الحقيقي ، فهو يقوم على النصح والوعظ والإرشاد ، تلون بصبغة الدين والسلف .

-المرحلة الثانية :

شعر الأجراس وتمتد بين سنتي 1925-1936: لم يخرج الشعر الجزائري عن دائرة الإصلاح والمرحلة التي سبقت ، إلا أن يحمل نوعا من نبرة جديدة أطلق عليها الدكتور سعد الله مصطلح «الجرس» لما يحمله من دلالة حدة الصوت ، وذلك يعود إلى تلك التحولات التي شهدتها الجزائر على المستوى الاجتماعي والسياسي مع تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931، وإنشاء مجلة البصائر

-المرحلة الثالثة :

أطلق عليها أبو القاسم سعد الله شعر البناء وكانت بين 1936إلى 1945: ذكر أن هذه المرحلة تميزت بتصاعد الوعي القومي لدى بعض الشعراء الذين انتفعوا بوعي الماضي منهم الشاعر محمد العيد ، كما أنها شهدت أيضا بنضج شعري ونظرة جديدة للحياة ووعي بالأهداف الوطنية ، يمثل هذه المرحلة ثلة من الشعراء الذين تأثروا بالمذاهب الأدبية والتيارات الفكرية الغربية كالشاعر رمضان حمود.

-المرحلة الرابعة :

شعر الهدف من سنة 1945 إلى 1954م: أطلق عليها أبو القاسم هذه التسمية ، لأن شاعر هذه المرحلة خاب ظنه ويئس عقب مجازر الثامن من ماي ، وتيقن أن لا سبيل من الكفاح لكي يدنو من هدف لحن الحرية والاستقلال ورفع العلم .وبرز إلى جانب مفدي زكريا ومحمد العيد وسحنون شعراء آخرون منهم الربيع بوشامة والأخضر السائحي وغيرهما.وقد تعدت موضوعات شعر هذه المرحلة قضايا خارج الوطن منها القضية الفلسطينية وأحداث الشرق العربي .

-المرحلة الخامسة

مرحلة الثورة وامتدت من 1954: ميّز الشعر في هذه المرحلة ظروف الثورة ، فتفجرت عواطف الشعر بقصائد مدوية ، تعبّر عن النصر وتبشّر بالحريّة ، فكان الشّعر يجسد النفس المتأججة و"الروح الوطنية المشتعلة سواء في تناوله لمواضيع ثورية مباشرة أو مستوحاة من الواقع العربي ، كما تميز بالحماس الطائر والعاطفة المجنحة ويفتقر إلى الخيال الموحي والتأمل الخلاّق " (سعد الله أبو القاسم ، 1985، صفحة 46)ومن شعراء هذه المرحلة محمد صالح باوية ، صالح خرفي، أبو القاسم خمّار ، عبد السلام حبيب.

وقد لجأ أبو القاسم سعد الله إلى تقنية التقسيم المرحلي التي يعتمدها المنهج التاريخي لتسهيل دراسة الشعر في مرحلة معينة تقتضي تشابها في الموضوعات والمضامين مرتبطة بالأحداث التي أفرزتها، كما هو الشأن مع هذه الدراسة التي أجراها حول الشعر الجزائري الحديث .

هـ-مصطلح المؤثرات:

يعني هذا المصطلح في الدراسات النقدية الحديثة كل ما هو خارج سياق النص والعوامل التي تسهم في إنتاجه وتؤثر فيه ، فقد تكون هذه العوامل إما تاريخية أو اجتماعية أو نفسية ، استعمل أبو القاسم سعد الله هذا المصطلح ووضعه كعنوان فرعي ، تحت العنوان الكبير الذي قام بدراسته «الأدب الجزائري-مؤثراته وتياراته-»، قدم فيها وصفا لحالة الركود والجمود الذي ظل يعيشها الأدب ، مرتبطا بحالة الاستقرار التي عاشتها الجزائر بعد فشل كل محاولات التخلص من القيود ، كما ذكر أن هذا الجمود سيظل يغطي المساحات ما لم يظهر قائد أو أديب ، لكنه يرى أن «ظهور الأديب كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بعدة مؤثرات مهدت له الطريق ، وفتحت أمامه كثيرا من المنافذ ، وهذه المؤثرات عديدة منها الثقافي والاقتصادي ، ومنها السياسي والديني، بل مناه المحلي والمنبعث من داخل الضمير الشعبي وحاجته إلى التطور ، والمستمد من خارج الحدود السياسية والجغرافية للجزائر» (سعد الله أبو القاسم، 2007، صفحة 23)، هذه العوامل و المؤثرات التي أضاءت فكرة العلاقة بين الأدب وبين دوافعه الأصلية ، حددت تياراته التقليدية والرومانتيكية والواقعية ، كلها أسهمت في انبعاث أديب ينتج أدبا ، يفجر به الجمود ويكسر به الركود ، ويتطلع من خلاله إلى وطن يلوح في الأفق.

7-خاتمة:

بمكانته العلمية المرموقة استطاع أبو القاسم سعد الله الغوص في كثير من الحقول المعرفية ذات الصلة بالعلوم الإنسانية ، فكان المؤرخ واللغوي والأديب المبدع المجدد والناقد المحدث ، تنسب له الريادة في النقد المنهجي ، إنه الذي مدّ يده للنقد الأدبي التقليدي الذي كان يغرق في الذوق والانطباع وأخرجه من بوتقة القراءة الجزئية والأحكام النقدية إلى قراءة علمية رصينة تخضع لآليات وإجراءات.

إنّه أبو المنهج التاريخي –كما سبق أن أشرنا –والمنهج الاجتماعي وكذا النفسي في الدراسات النقدية الجزائرية الحديثة واستطاع بكل جدارة أن يستنبت هذه المناهج السياقية في تربة النقد الجزائري مستلهما طروحاتها وآلياتها من النقد الغربي عن طريق الثقافة المشرقية ، بحكم مواصلة الدراسات العليا في إحدى الجامعات المصرية .

ورغم أفول نجم المناهج السياقية، وظهور على أنقاذها مناهج نسقية تعنى بالداخل النصي، لا يمكننا أن نتناسى جهود أبي القاسم التي تعد اللبنة الأولى في تأسيس لمنجز نقدي جزائري حديث يعتمد المناهج السياقية، وبالتالي فهي مرحلة مهمة لا يمكن إغفالها وتجاهلها في تاريخ النقد العربي عموما والجزائري على وجه الخصوص .

8-المراجع:

-الركيبي عبد الله، دت، دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، مصر، الدار القومية للطباعة والنشر.

-انريك اندرسون امبرت تر الطاهر أحمد مكي، 1991، القاهرة، مكتبة الآداب.

بحراوي السيد، 1993، البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث، ط1، مصر، دار شرقيات.

-بوجمع بناني أحمد، 2017، المصطلح النقدي المعاصر عند عبد الملك مرتاض، ط1، دار الأيام ، عمان.

-حجازي سمير، 2004، مدخل إلى مناهج النقد المعاصر، ط1، سوريا، دار التوفيق للطباعة والنشر.

-زكي أحمد كمال، 1972، النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

-سعد الله أبو القاسم ، 1985، شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة، ط3، الجزائر، م و ك.

-سعد الله أبو القاسم، 2007، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط5، دار الرائد للكتاب.

-فتح الله حسن، 1986، شاعر وثورة، ط1، سوسة: دار المعارف للطباعة والنشر.

-قطوس بسام، 2016، دليل النظرية النقدية المعاصرة؛ مناهج وتيارات، ط1، عمان ، فضاءات للنشر والتوزيع.

-لانسون ومايبه تر محمد مندور، 1982، منهج البحث في اللغة والأدب، ط2، القاهرة، المركز القومي للترجمة.

-مرتاض عبد الملك: 2015، نظرية النص الأدبي، ط3، الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.

-ناصر محمد، 2006، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ط2، بيروت ، دار الغرب الإسلامي.
-وغليسي يوسف، 2002، النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية، ط1، الجزائر، إصدارات رابطة إبداع الثقافية.

المجلات:

-سعد الله أبو القاسم، 1957، تصميم للشعر الجزائري، الآداب البيروتية، ع12، ص27-ص29.
-سعد الله أبو القاسم، 1960، محمد العيد كبير شعراء الجزائر، الآداب البيروتية، ع05، ص49-ص51.
-زيوان فاتح، أثر المرجعية الفكرية في تحليل الخطاب اللغوي، المجلة العربية، ع164.